من أحسن القصص

غيرة

للكاتب ليتونيرى سولومون چسنار

بقلم محمد عبد الفتاح محمد

لا ريب أن الغيرة هى أخبث العواطف جمعاء بين الناس ، وأسرعها تشبثاً بالصدور وأقواها على التعلق بالأفئدة ؛ بل هى كالأرقم ينفث السم بوخز من الناب بسيط ، وكالعقرب تسرح الهلاك بضربة من ذنبها الواهى الضعيف . ويرى القارئ فى هذه القصة كيف تستبد هذه العاطفة الخبيثة بالمرء فتقيمه وتقعده ، وتفعم حياته بالبؤس وتنزع قلبه باليأس ، وتمرض على صفحة ذهنه المضطرب صوراً متتابعة من الوساوس والأوهام

كان « أليكسيس » فتى ذا مروءة ، غريض الشباب ، بادى الفتوة ، أسمر الإهاب ، يزخر بالرجولة الناضجة الكاملة ؛ وكانت « دافن » كاعباً فتانة ، ساحرة ريانة ، مياسة كالغصن ، مشرقة كالبدر ، طاعمة كالزنبقة ، وقد تعاهدا على الوفاء فى الحب ، وأقسما على الاخلاص فى الهوى . لذلك أترعت « فينوس » مع سائر ربات الحب كأس حبهما بالسعادة والهناءة ، فراحا ينعمان بحياة رغيدة وعيش مخفرج فى ظل غرامهما المذرى الفياض

وإذ تماثل أبو أليكسيس للشفاء من مرض عضال كاد يعصر عوده الواهن ، ويطفئ سراج حياته الخافت فقد استدعاه يوماً وقال له :

— بُنى العزيز . إن لربة الصحة علىّ لنذراً : ستاً من الشاء الكناز فاذهب بنى بها إلى معبدها وقدمها قرباناً على مذبحها

وكان المعبد يبعد بمسيرة يومين متتابعين ليس غير . بيد أن أليكسيس وقف من حبيبته موقف النازح إلى سفر طويل دونه المحيطات والبحور . وبالدمع السخين يسح من عينيه ، والحزن العميق يرتسم على شفتيه ، بدأ سفرته والشاء أمامه تدب دبيبها المضطرب البطىء . سار يتنهد تنهد المحزون ويزفر الزفرات الحرار . فمضت أشجار الصفصاف على طول الغدير تشاركه التأوه والأنين ، ومر بالمناظر التى حوله من سندس جميل منفطر بأفواف الزهور الفواحة المعطار كأنه حالم لا يأخذه سحرها ولا يناله عبيرها . وكيف ينتبه إلى تلك الجنان وهو هكذا حزين النفس جريح القلب مكلوم الفؤاد ؟ وهل لمن كتب عليه النوى عن حبيبه والبعد عن أليفه أن يفكر فى غير هواه ، وأن يحس سوى الحنين إلى لياله ؟ وهل يرى العاشق المدنف الصب المتيم فى كل ما يرى من جمال الطبيعة وسحر المناظر إلا وجه حبيبه النأى يزيد فى ألاهيب الحب ويسجر نيران الغرام ... كان يراها إبان سيره وحيداً مع غنمه ... كان يراها فى جوسقها ناعسة وسنانة ، أو مضطجعة يقظانة فى ظل صخرة مشرفة على الغدير الرقراق . بل كان يسمعها تناديه وتردد اسمه . وبعث التفكير والخيال فى قلبه نار الجوى ، فتنهد . وظل

هكذا حاله وهو يسير وراء غنمه . ولم يكن لينتبه من هذه الأفكار ويثوب إلى نفسه إلا ليلمن هذه الشاة البطيئة المكسال . وود لو كانت طيراً يطير أو غزالا يطوى الأرض طياً . وأخيراً بعد طويل من التفكير والسير وصل إلى المعبد المقصود

ونحرت الغنم وقدمت الأضاحى ، فعاد من حيث أتي طائراً على أجنحة حبه العظيم . وبينما هو يجد فى السير على أرض حطيبة . تقحّمتْ شوكةٌ قدمَه وانغرزت فيها فسبّبت له ألماً شديداً قعد به حتى عن الحبْو إلى الكوخ الجاثم على كثب منه . والتقطه زوجان طيبا القلب وتوليا علاجه من جرحه الدامى الأليم ببعض الأعشاب البرية بينا دأب هو على أن يتمتم بين الفينة والفينة ؛ « يالبؤسى وشقائى ! » . وأخذ يستبطئ الساعات ويتمجل الدقائق ، ويناشد الشمس أن تحث السير نحو المغيب ، حتى إذا مادلكت راح يضرّع إلى الليل أن ينجاب وينجلى . ولم يكن ذلك وحده هو الذى أقض مضجعه وأقلق باله ، بل راحت بعض الآلهة المتاة القساة ينثرون فى قلبه بذور الغيرة . فجاشت فى قلبه الوساوس وتقلب على فراش حشْوه الفكر والهم . وطفقت الأوهام تُوغل فى رأسه القلق الحيران ، وراح يقاول نفسه فى تمتمة أشبه بالهذيان :

« إيه أيتها الآلهة : ما هذه الأفكار السوداء ؟ أتغدر بى دافن ؟ محض وهم وافتراء ... ولكن المرأة هى المرأة ... ودافن جميله حُسّان ... من ذا الذى يراها ولا يشتهيها ؟ من ذا الذى لا يسبيه دلّها وتجنيها ؟ . . ألم يدأب جارها « دافيس » على التقرب منها والتغزل فيها ؟ . . وهو لا نكران وسيم جذاب ، لهصوت مُرِنٌ خلاب ، إذا ما تكلم سحر ، وإذا ما أنشد وتغنى بهر ، وإذا ما عزف على قيثارته مَسّ أوتار القلوب ، وهز كوامن الشجون ، وبعث إلى الأفئدة الحنين إلى العشق والهيام . ثم إن بيته مُلاصق لبيتها ولا يفصلها عنه غير الجدران ... يا للوغد الجميل لقد شغفها حباً ... أوه . . ذرينى أيتها الأوهام الباطلة . . دعينى أيتها الأفكار الآثمة . . »

ولكنْ تعمقت جذور الغيرة فى ذهنه وأترعت سمومُها شغاف قلبه ، ودفعت السحاب الثقال والغيوم الكثيفة إلى سماء حبه اللازوردية الصافية ، وسلبته الراحة والهناءة آناء الليل وأطراف النهار . ففى أحلامه بالليل ، وفى تخيلاته وأوهامه بالنهار ، كان يرى حبيبته تخطر كنسمات الصبح المنوّر ، وتميس كالغصن الفينان ، نحو الغدير ذى الخرير ، تحت ظلال الأشجار الشجراء اللفاء لتقابل دافيس الذى يروح يغنى للقائها بصوته السماوى الساحر فيشنف أذنيها بحلو أنغامه ، ويطرب سمعَيْها برخيم ألحانه ... ورآها بعين الغيرة تبثه ما تجنه له من الحب عن طريق لحظها الفاتر ، وتشرح له هواها بلغة العيون السواحر ، وصدرها الناهد الأثيم يعلو ويهبط مع أنفاسها اللاهثة التى تعبر عن شدة العشق الدفين . ورآها كرة أخرى نائمة تحت ظلال الأغصان الوارفة النشوى بينا يدب دافيس دبيب السارق فى جنح الليل الغاسق فيقترب منها ويقترب حتى يطوق بصره بدنها الطرى الفينان فيتأمل جمالها الوسنان ويتملى من حسنها الفتان ... وينحنى عليها ثم يلثم يدها فى توْق فلا تنتبه ، فيقبل خدها فى شوق فلا تفيق ، فينهال على فمها الوردى فى حرارة ووجد فلا « تستيقظ »

هنا يصرخ اليكسيس بأعلى صوته : « يالى من بائس مسكين ! ما هذه الأفكار السود التى يخلقها خيالي ؟ لماذا أرانى لا أحيد عن هذه الأفكار قيد أنملة ، ولا أراها تفك أسارى مقدار لحظة ؟ لماذا أشق نفسى بهذا الوهم الباطل وتلك الصور الزائفة التى أتهم بها طهارتها وأنال بالإيقال فيها من إخلاصها ووفائها ؟ »

وتصرمت ستة أيام طوال ولما يلتئم جرحه بعد ، فلم يستطع الصبر أكثر مما صبر ؛ وعبثاً حاول الزوجان أن يثنياه عن السفر .. فواصل رحلته بعد أن عانق مضيفيه وشكر لهما صنيعهما .. واصل السير على قدر ما سمح به جرحه الحى .. وكان الليل قد وقب حينما انتهى إلى حيث يقوم مثوى حبيبته الغالية . وكان القمر الزاهر يترجل رويداً رويداً فيلقى بضوئه الناعس على الأرض الشجراء .. وقاول نفسه وهو يغذ السير نحو الحبيبة : « إليك عنى أيتها الأفكار القواتم . هاهى ذى حياتى تنتظر أوْبتى . وسأسكب دموع الفرح الندية للقياها ، وأضمها إلى صدرى الظامئ اللهفان » وفى ممشى حديقة بيتها رآى طيفاً يتثنى تثنيها فتمتم : « إنها هي .. هى دافن بذاتها . فهذه قامتها المهيبة ، ومشيتها البانية الرائعة ، وثوبها الأبيض الهفهاف .. إنها هى أيتها الآلهة .. ولكن أيان تذهب وقد غسق الليل ؟ ليس من سداد الرأى أن تخرج عذراء وحيدة إلى هذا المكان الموحش فى ذلك الليل المغطش . ألا تكون قد خرجت للقائى ؟ بيد أنه رآى شبحاً يسير وراءها حتى لحق بها .. شبح رجل .. ثم سمعها تضحك وهى تتناول يده فى يدها وتأخذ منه سلة الزهور فتعلقها فى ذراعها الأخرى ، والآن هما يسيران حنباً إلى جنب تحت ضوء القمر الشاحب الحزين كأبدع ما يكون عاشقان

وتسمر اليكسيس فى مكانه يرتعد من الرأس إلى القدم ، وراح يفكر : «ماذا أرى ! إذن فقد صدقتنى الآلهة .. وتحققت أوهامى .. إذن لقد أعدتنى الآلهة الرحيمة العادلة للصدمة فأحاطتنى بكل شىء علماً .. يالى من بائس تعس ... أين الريبة التى ألهمتنى تلك الحقائق؟ هلمى أيتها الإلهة فساعدينى على الانتقام، على الانتقام من ناكثة العهود .. الغادرة الكنود هلمى فاسعى هذين الخائنين ثم عقبى بى أنا الآخر

وتأبط الشاب ذراع الفتاة وسارا تحت ضوء القمر متجهين نحو جنة من الآس والبنفسج حيث يقوم تمثال فينوس .. سارا يتناقلان الحديث ويتجاذبان الكلام بينما طفح وجهها بمعانى السعادة والغبطة .. وقال اليكسيس فى نفسه : « آه : إنهما ذاهبان إلى جنة الآس حيث تساقينا — أنا وهي — كؤوس الحب مترعة .. حيث باحت لى بسر قلبها، وأسكرتنى بخمرة حبها . هاهما يدخلان إلى الحرج .. لقد غابا عن بصرى .. لعلهما الآن فى ظل شجرة يتناغيان ، أو على ضفة الغدير يتشاكيان .. ولكن لا .. لقد عادا إلى الظهور ثانية . إنى ألمح فستانها الأبيض ينعكس عليه ضوء القمر من خلال الفروع والأغصان .. لقد توقفا عن المسير إذ أتيا على بقعة سندسية يكسوها العشب الطويل والحشائش الكثة النامية .. يا للخيانة والغدر .. كيف لعمرى تسمح ربة الحب لهذين الغادرين بتدنيس جلال الليل الساجى وجمال القمر المتبلج الزاهر .. بلى .. إجلسا يشهد القمر خيانتكما وغدركما ، وتنصت النجوم إلى كلمات الحب الآثم التى بها تتناجيان .. ألا لعنة الشيطان عليكما .. ولكن ما هذا ؟ .. أبلبل يغرد وحمام

يسجع وأطيار تشدو ؟. وكيف ذلك وفى تلك البقعة الطاهرة يجلس هذان الانسان الفاجران !. أراهما يتحركان .. أجل ، إنهما فى سبيلهما إلى معبد فينوس . سأمضى فى أثرهما فأنصت إلى حديثهما وأقتص حركاتهما

واتخذ سبيله وراءهما لا يلوى على شىء، واقترب منهما فى حذر حتى أصبحا قاب قوسين أو أدنى من أعمدة المعبد الرخامية التى تشق الفضاء ... وعاد إلى تمتمته «ماذا !! إنهما يدخلان ... أو هل تسمح الربة أن تبارك هذين الفاسقين » ... ورأى الفتاة تنزل الدرجات القليلة وفى ذراعها سلة الأزهار ... بينما استند الشاب على أحد الأعمدة ينظر إلى « فاتنته » ... واقترب اليكسيس خلسة إلى ظل عامود ووقف ثمة يتربص ويتجسس . رأى دافن تبلغ تمثال فينوس الذى يقوم هناك في حلته الرخامية الناصعة تحت ضوء القمر الشاحب ، والذى بدا كأنه تراجع ثمة ازدراء لتلك النظرات الحيرى التى شمت من عيون هذين المجرمين اللذين تقحما معبده للتضحية على مذبحه ... وجثت دافن تحت قدمي التمثال حيث وضعت ما تحمل من الأزهار النضيرة والورود الفواحة ، وراحت تتمتم بصلاة حارة بين نشيج يهزها ودمع يخنقها « إصغى إلى صلواتى واستجيبى لدعائى أيتها الربة الرحيمة العادلة ... واقبلى هذه الزهور التى أقدمها قرباناً على مذبحك ... وإن ندى الليل الذى يبللها لمتزج بدموعى الغوالى ... ها قد تقضت ستة أيام سوياً مذ نأى عنى اليكسيس الحبيب ... أوه ! أى فينوس الحلوة الطيبة . أسألك باسم هاته الأزهار التى أضحى بها على مذبحك المقدس أن تصونيه وترعيه وتهديه سواء السبيل ، وتريديه إلى ذراعىّ سالماً من غير سوء . وتبعثيه إلىّ محباً مخلصاً وعاشقاً وفياً كما تركنى .. آمين .. آمين ..»

وأصغى اليكسيس إلى صلاتها فى ذهول وتعجب ... هنالك فقط سدد نظرة فاحصة إلى الشاب الذى معها . وكان آنئذ فى وضع بدا فيه وجهه تحت ضوء القمر ... لقد رأى الحقيقة الآن! وما الشاب إلا أخو دافن ... وقد رافقها ولا ريب فى مجيئها إلى المعبد لعلمه أنه من الخطر على عذراء رعبيب مثلها أن تخرج وحيدة فى ذلك الليل المدلهم الداجى

وبرز اليكسيس من مخبأه ... ففاض الفرح على دافن لرؤيته ... وامتلأ فؤاده هو بالسرور ... والخجل أيضاً ... وتعانقا طويلاً ... ثم اتجها إلى الربة ثمة يصليان ويشكران

محمد عبد الفتاح محمد
بالساحة والناجم بينها

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً